نقاط على الحروف

يحسن بى قبل أن أختتم الحديث عن هذا الموضوع الخطير أن أضع أمام القارىء المسلم مجموعة من الحقائق أو التنبيهات:

أولا: يعلم الجميع أنني من دعاة الاجتهاد والتجديد، وكم أصابنى من أنصار الجمود والتقليد، ولكن ما أعظم الفرق بين الاجتهاد والتسيب، وبين التجديد والتبديد.

إننا نرحب بالاجتهاد إذا صدر من أهله فى محله، أما أن يكون بابا مفتوحا لمن يملك أهليته ومن لا يملك، فهذا عبث لا يقبل فى دين الله، ولا فى دنيا الناس.

كما أن الجميع يعلمون أنى من دعاة التيسير فى فقه الأحكام الشرعية، ومنهجى هو التشديد فى الأصول، والتيسير فى الفروع، ولكن التيسير شىء، وتحريف الأحكام، وقسر النصوص المحكمة على غير معانيها شىء آخر، أسأل الله أن يعافينا منه.

ثانيا: كنت أود ألا تشغل أمتنا بإثارة هذا الموضوع، وإنفاق الوقت فى الأخذ والرد، والجذب والشد. فما أحوجنا إلى بذل هذا الوقت فى البناء والعمل الإيجابى، والعودة بالأمة إلى

الإسلام المتكامل الذى يتربى فى ظله الإنسان المؤمن المنتج الراقى، ويتكون فى رحابه المجتمع الصالح المتعاون المتحضر.

ولكنا أجبرنا على هذا الرد والبيان، أداء للأمانة، وتصحيحا للمفاهيم، وتفنيدا للشبهات، وردا على الأغلاط والمغالطات، على الرغم من أنى لا أحب الاشتغال بالردود المباشرة، ولا أستريح إليها، حتى أنى كثيرا وغالبا ما أهمل الرد على من ينقدوننى فى جزئية أو أخرى من كتبى وبحوثى ومحاضراتى، لا استهانة بهم، ولا تقليلا من شأنهم، بل انصرافا إلى ما اعتبره أهم وأجدى وأبقى، ولكل وجهة هو موليها.

ولولا آيتان فى كتاب الله، وهما قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ، إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [البقرة: ١٥٩، ١٦٠] لولا هاتان الآيتان لوسعنى الصمت، ولى عذر بأنى غريق فى بحر من قضايا الإسلام، وهموم المسلمين، الفكرية والعملية، لا قرار له ولا شطآن.

ثالثا: أود أن أذكر وأؤكد: أن الذى نسعى إليه، وندعو له ويجاهد فى سبيله، ونذيب حبات قلوبنا وشموع أعمارنا من أجله، ليس نقطة جزئية تتعلق بمشكلة واحدة من المشكلات،

اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية، بل هو هدف عظيم عظم الإسلام الذى شرفنا الله به، وجعله مناط سعادتنا فى الدنيا والآخرة، هو: أن تحيا أمتنا حياة إسلامية متكاملة، كما أحب الله لها: حياة توجهها العقيدة الإسلامية، وتسودها المفاهيم الإسلامية، وتقودها الأخلاق الإسلامية، وتضبطها التقاليد الإسلامية وتحكمها الشريعة الإسلامية.

ونرى أن شغل الناس بقضية واحدة، وتضخيمها على حساب القضايا الأخرى، لا يأتى إلا من خلل فى الفهم -فهم الدين أو فهم الحياة أو كليهما- أو خبث فى القصد.

يجب أن نشغل أمتنا بهمومها الكبرى: تمزقها، تخلفها، ضياع أبنائها، انتشار المخدرات فيها، ذيوع الرشوة، وفساد الضمائر، خراب الأخلاق، عجزنا عن معالجة البلهارسيا، إنفاقنا مئات الملايين فى أشياء يمكن الاستغناء عنها، مثل الأمن المركزى والمباحث، نهب المال العام، التسيب فى أجهزة الدولة، تعذيب المعتقلين، تزوير الانتخابات، تسلط إسرائيل، قوة التنصير فى العالم، مشكلة لبنان، مشكلة أفغانستان، مشكلة إريتريا... مئات المشكلات والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، التى تملأ أنباؤها صفحات الصحف كل يوم، ولا تقف عند حد.

على أن العالم الآن مشغول بهموم القرن الحادى والعشرين، وما يمكن أن تتمخض عنه أرحام الأيام والليالى، ومن أحداث تهدد البشرية من انتشار التلوث البيئى، والإشعاع النووى، واختلال التوازن فى كوكبنا بالخلل فى طبقة الأوزون، والارتفاع الخطير فى حرارة الأرض، ثم ما يمكن أن تسفر عنه ثورة (البيولوجيا) وهندسة الوراثة، إذا اقتحمت عالم الإنسان.

إن العالم مشغول بهموم الغد، ونحن مشغولون عن هموم اليوم!

لماذا؟

لأننا لا نريد أن نواجه الأمور بصراحة وحسم، نفعل ذلك فى أمور دنيانا، ونريد أن نطبق ذلك على أمور ديننا.

نأخذ من الديمقراطية اسمها لا مسماها، ومبناها لا معناها، وصورتها لا حقيقتها.

وهكذا نريد أن نكون مع الدين، نرى أن نتحايل عليه، لنسمى أنفسنا مسلمين، ونضفى على أوضاعنا عنوانا إسلاميا، ونحن غير صادقين مع أنفسنا ولا مع الإسلام.

وإلا، فلماذا لا نجعل حياتنا إسلامية حقة: تربية وثقافة وإعلاما وتقاليد وقوانين؟ ولماذا لا نعطى الدين إلا ركنا من

obeikandl.com

حياتنا: صفحة كل أسبوع فى الجريدة، وحديثا فى أجهزة الإعلام فى الأوقات الميتة، وأحوال الأسرة فى القانون، وحصة الدين فى المدرسة.. ولا شيء للدين بعد ذلك.

رابعا: إن التخريب الذى أحدثته عصور التخلف، وعهود الاستعمار، وعهود حكم الفساد والطغيان، وتخريب ممتد الأثر، واسع المدى، بعيد العمق، ولا يمكن إصلاحه بالترقيع، بل لابد من تغيير شامل لكل جوانب الحياة، حتى يصلح فاسدها، ويستقيم معوجها، ويتحرك راكدها، ويذهب خبثها، ويبقى طيبها.

وأول ما يجب أن نبدأ به فى هذا التغيير هو تغيير ما بالأنفس، من أفكار كاسدة، وميول منحرفة، واتجاهات جاهلة ظالمة، حتى يغير الله ما بالناس من سوء واضطراب وتخبط فى نواحى الحياة كلها، فهذه السنة الإلهية الاجتماعية التى لا تتخلف، والتى أشار إليها القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد: ١١].

وهذا هو واجب العلماء والدعاة والمفكرين والمربين، والجماعات الإسلامية، وكل من عنده رأى أو سلطة أو قدرة، يمكن أن يسهم بها فى إصلاح حال الأمة.

خامسا: إن الاقتصاد الإسلامى، لا يمكن فصله عن التشريع

الإسلامى، ولا عن التربية الإسلامية، ولا عن الثقافة الإسلامية، ولا عن الإعلام الإسلامى، ولا عن الأسرة الإسلامية، فالاقتصاد إنما هو جزء من كل، وإن كان جزءا له أهميته وتأثيره.

ثم إن الاقتصاد الإسلامى لا يقوم على تحريم الربا فقط، كما يتصور أو يصور بعض الناس، إن تحريم الربا أحد أركان الاقتصاد الإسلامى، ولكن هناك إيتاء الزكاة، والتكافل الاجتماعى، والعدل الاجتماعى، وقبل ذلك هناك العمل لعمارة الأرض، وتنمية الحياة، والقيام بحق منصب الخلافة، الذى كرم الله به الإنسان، فجعله خليفة فى الأرض واستعمره فيها.

وهناك تحريم الاحتكار والغش والتطفيف والترف والكنز والظلم والاستغلال.

وهناك الاعتدال فى الإنفاق، شأن عباد الرحمن الذين وصفهم القرآن بأنهم: ﴿إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وهنا الملكية بنوعيها الخاص والعام وما فرض عليها الإسلام من تكاليف، وما وضع لها من قيود وشروط فى تحصيلها أولا، ثم فى تنميتها ثانيا، ثم فى الحفاظ عليها والقيام بحق (الاستخلاف) فيها ثالثا، وهو المشار إليه فى قوله: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٢٥].